الإيتوس الخطابي في شعر الصّعاليك-مقاربة حجاجيّة لنماذج مختارة

L'Ethos discursif dans la poésie des Sa'alaik-

Approche argumentative de modèles sélectionnés

ط.د. عيسى حمّيش *

PhD.S. Aissa Hamiche

مخبر التّراث الثّقافي واللّغوي والأدبي بالجنوب الجزائريّ.

جامعة غرداية(الجزائر)

University of Ghardaia (Algeria)

hamiche.aissa@univ-ghardaia.dz

تاريخ الإرسال: 2023/08/07	تاريخ القبول: 2023/09/05	تاريخ النشر: 2023/12/15

مُلخّص البحث

تتقصّد هذه الورقة البحثيّة الموسومة بـ" الإيتوس الخطابي في شعر الصّعاليك-مقاربة حجاجيّة لنماذج مختارة" النّظر في خطاب الصّعلكة الشّعريّ من زاوية أخلاقيّة، محاولة الكشف عن الصّورة الّتي نحتها الصّعاليك لأنفسهم من خلال نتاجاتهم الشّعرية، وساعية للإجابة عن إشكاليّة كبرى مُفادها: كيف يشتغل الإيتوس الخطابي حجاجيّا في أشعار الصّعاليك؟ وفي سبيل الإجابة عن هذا التّساؤل توسّل البحث بمنهج تداوليّ يستند إلى الوصف والتّحليل كآليتين مساعدتين.

مكّن بحث أشعار طائفة من الصّعاليك -بهذا التّصوّر-من الخلوص إلى جملة من الاستنتاجات لعلّ أهمّها أنّ خطاب الصّعاليك الشّعريّ خطاب ناجع انتقل بالمتلقّين من مقامات السّخط إلى مقامات الرّضا بفضل ما انطوى عليه من سمات اللّبابة والخيريّة والبرّ الّتي ظهر وفقها الصّعلوك.

الكلمات المفتاحيّة: إيتوس، حجاج، أخلاق، صعلوك، تأثير.

Abstract:

This research paper, titled "The Discursive Ethos in Sa'aleek Poetry: A Rhetorical Approach to Selected Models," examines the poetic discourse of Sa'aleek(brigand- poets) from an ethical perspective. It seeks to uncover the image that Sa'aleek poets have shaped for themselves through their poetic works, while attempting to answer a major question: How does the discursive ethos

* ط.د. عيسى حمّيش: hamiche.aissa@univ-ghardaia.dz

function rhetorically in Sa'aleek poetry? To answer this question, the research employs a pragmatic methodology based on description and analysis as assisting tools.

This research allows for a variety of conclusions regarding Sa'aleek poetry, the most important of which is that their poetic discourse is an effective discourse that transmits recipients from realms of anger to realms of contentment, thanks to its characteristics of cleverness, beneficence, and virtuousness that the Sa'aleek (brigand- poets) embodied.

Keywords: ethos, rhetoric, ethics, Sa'aleek.

مقدّمة:

تمثّل ظاهرة الصّعلكة جانبًا مهمًّا ومرحلة لافتة من تاريخ المجتمع العربي الجاهليّ؛ فهي لم تكن ذلك الحدث الطارئ بل كانت ظاهرة أصيلة -تاريخًا وجغرافية-ضاربة بجذورها في أعماقه، نبعت من ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع القبلي، ولازمت أفراده كلّ حسب درجة تأثره بتلك الظروف؛ لذا فهي امتداد له، إنها الوجه الأخر الثائر الذي خرج عن سطوة الواقع الاجتماعي الطبقي فرفض نظام القبيلة وأعرافها، وأبى الانخراط فيها والخضوع لقوانينها. ولمّا كان الشعر متّصلا بالواقع الاجتماعي، وكان الصّعاليك من أجاود العرب شعرًا كان من الطبيعيّ أن ترتسم صورة الصعاليك في مقطوعاتهم، وأن تنطبع ذواتهم في أشعارهم؛ ذلك أنّ "الشعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسّور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم التفار، والحجّة القاطعة عند الخصام"[1].

لقد مثّلت أشعار الصعاليك صدى نفسيًّا انبعث من أعماق اللّاشعور فحاكى واقعهم،[2] وجعل نتاجاتهم الشّعريّة صورة مطابقة -على الأقلّ مقاربة- لواقعهم المعيش، فسعى شعراء الجماعة إلى ترجمة رؤيتهم المميّزة، وفلسفتهم الخاصّة للحياة التي تتجاوز أعرافَ القبيلة السّائدةَ، وتشقّ عصا الإجماع بعرض ذواتهم – من خلال أشعارهم-في صورٍ مقبولة أخلاقيًا، وهيئاتٍ تترك للمتلقّين انطباعًا طيّبًا.

تأتي دراستنا هذه تحت وسم:" الإيتوس الخطابي في شعر الصّعاليك-مقاربة حجاجيّة لنماذج مختارة" لتنظرَ في خطاب الصّعلكة الشّعريّ من زاوية أخلاقيّة؛ حيث ستحاول الدّراسة الوقوف على النموذج الأخلاقيّ لهذه الطّائفة انطلاقًا من القيم المعروضة ضمن نتاجاتها الشعريّة، وذلك من خلال استجلاء أبرز القيم المحبوءة في ثناياه، محاوِلةً الكشف عن كيفيات اشتغالها حجاجيًا بما يضمن دحض الشُّبَه اللّائطة بأصحابه (الصّعاليك) -بدءًا بالتّسمية في حدّ ذاتها- بِعَدِّهم معارضين/ متمرّدين على القبيلة/ السّلطة، ومفاهيمها، ونُظُمها الاجتماعية

والسّياسيّة أوّلا، وبما يضمن دفع المتلقّين للانخراط في مسعاهم، وكسب تأييدهم وتعاطفهم عبر مسارات التاريخ ثانيًا.

تثير مقاربتنا لخطاب الصّعلكة بهذا التّصور جملة من الإشكاليّات أهمّها:

- ما الحجاج؟ ما الإيتوس؟ وما الصعاليك؟
- ما حدود مساحة التّقاطع بين كلّ من: الإيتوس (الأخلاق)، الحجاج (الإقناع)، والشّعر (التّخييل)؟
- إلى أيّ حدّ تسهم القيم المبثوثة في تضاعيف قصائد الصّعاليك في بناءِ هوّية الصّعلوك المستقلّة؟
- ما تجلّيات استراتيجية الإيتوس في شعر الصّعاليك، وكيف يشتغل حجاجيًّا؟

1.على سبيل التّعريف:

قبل ورود مجاهل هذه الدّراسة، حريّ بنا الوقوف عند المصطلحات المفاتيح في عنوان هذا البحث؛ لتكون معالم ترشد، وأدلّة تنجد؛ فتمثّل المفاهيم والاصطلاحات بصورة واضحة يعدّ أحد مرتكزات البحث العلمي المؤسّس والرّصين، كما يعدّ ضمانًا لفك مغاليق البحث بشكل آمن.

1 .1 الحجاج:

الحجاج في اللّغة جمع للحجّة، ومصدر للحجّ، " والحجّ: القصد...وقد حجّ بنو فلان فلانًا إذا أطالوا الاختلاف إليه"[3] والحجّة البرهان، ... والتحاجّ: التّخاصم، وحاجّه محاجّة وحجاجًا: نازعه الحجّة ... غلبه على حجّته"[4] وعليه فللجذر ح.ج.ج-معانٍ متنوّعة تدور حول: القصد، الاختلاف، البرهنة، التخاصم، الغلبة... وهو ما يقتضي وجود طرفين -على الأقلّ-يختلفان في وجهة النّظر، ويقصد أحدهما غلبة الآخر أو التأثير فيه، وهو قريب جدّا من مفهوم الحجاج في الاصطلاح؛ إذ حدّه" دراسة التّقنيات الخطابيّة التّي تهدف إلى حثّ عقول المخاطبين أو إلى رفع نسبة تأييدهم إلى القضايا المطروحة للتّقاش في سبيل الوصول إلى اتّفاق عامّ"[5] فالحجاج - إذن- محاولة لتغيير تمثّلات المخاطب، وسعي للتّأثير فيه أو في موقفه، بل وحتّى في سلوكه بوسائل الخطاب وآلياته المختلفة، ومنها الإيتوس، فما الإيتوس؟.

1 .2 الإيتوس:

على الرغم من أن الإيتوس -بعدّه استراتيجية حجاجيّة-لم يحظَ بالعناية الكافية كما حدث بالنّسبة إلى الآليات الحجاجيّة الأخرى- إلّا أنّ مريديه قد سلكوا في سبيل تعريفه طرائق قددًا، ولا عجب في ذلك؛ فالمصطلح غربيّ تناوشته أقلام المترجمين كلّ بطرف، كما أنّه ضارب في عمق التّاريخ، حامل لدلالات متعدّدة، ومستخدم في مجالات متنوّعة (الخطابة، تحليل الخطاب، التداوليات، علم الاجتماع...).

الإيتوس مفهوم مستوحى من خطابة **أرسطو (Aristot)**، وهو -عنده- أحد ثلاث وسائل للحجّة يتوسّل بها الخطيب لتحقيق الإقناع حيث يقول: "فأمّا التّصديقات التّي نحتال لها بالكلام فإنّها أنواع ثلاثة فمنها ما يكون بكيفية المتكلّم وسمته[الإيتوس]، ومنها ما يكون بتهيئة السّامع واستدراجه نحو الأمر[الباتوس]، ومنها ما يكون

بالكلام نفسه قبل التثبيت[اللّوغوس]"[6] والآتي فالإيتوس هو: "صفات الخطيب... إنّها سمات الطّبع الذي ينبغي على الخطيب أن يظهر به أمام المشاهدين (كيفما كان صدقه) من أجل أن يترك انطباعًا حسنًا"[7]

يحتفي التعريف أعلاه بصورة الخطيب التّي تستخلص من الخطاب/ الإيتوس الخطابي، وهو بذلك يغفل صورة الخطيب قبل الخطاب/ الإيتوس قبل الخطابي، كما يغفل الإيتوس الناجم عن الخطاب/ الإيتوس ما بعد الخطابي الذي يعدّ، وبذلك فهو يشير إلى وجه من ثلاثة أوجه من الإيتوس أشار إليها **محمد مشبال** وهو يستنتج حصيلة مناقشته للإيتوس "فقد يدلّ [الإيتوس]على السّمعة التي يحظى بها المتكلّم خارج النّص الذّي يواجهه السّامع، وهو الإيتوس الجاهز كما اصطلحت عليه روث أموسي، وقد يدلّ على الصورة التّي يرسمها المتكلّم لذاته في ما يشبه البورتريه الذّاتي، إذ يعمد الخطيب إلى ذكر سماته وفضائله، وقد يدلّ أخيرًا على الصّورة الذّاتيّة التّي يستنتجها المتلقّي من علامات الخطاب المختلفة"[8] على أنّ للإيتوس أوجهًا أخرى سيأتي بيانها كلّما دعت الضّرورة البحثية في كلّ مفصل من مفاصل هذه الورقة.

1 .3 الصعاليك:

الصعاليك جمع صعلوك، و" الصّعلوك: الفقير الذي لا مال له... ولا اعتماد... وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها...ورجل مصعلك الرأس: صغيره... وصعاليك العرب: ذؤبانها"[9]

بناءً على ما سبق، يتحدّد معنى الصّعلكة في إطلاقه اللّغويّ في أصل عامّ هو "الفقر"، وهو ما جاء -أيضًا-في خبر فاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ؛ إذ ذكرت للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَبَا جَهْمِ بْنَ هِشَامٍ قد خَطَبَاها، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: "أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ، فَصُعْلُوكٌ، لَا مَالَ لَهُ..."[10]، وفضلًا عن هذا الأصل العام هناك معانٍ فرعيّة من قبيل: الخروج، الانجراد، الصّغر ...، وكلّها معانٍ وثيقة الارتباط بشخصية الصّعلوك؛ فهو -وفق التعريف اللّغوي-الفقير المعدم الذي خرج عن حكم القبيلة وسلطانها، وتجرّد للغزو والفتك والإغارة، وقطع الطّرق لوحده أو مع طائفة صغيرة قليلة الأفراد ممّن نبا بهم المقام في قبائلهم فتمرّدوا على الواقع وثاروا عليه، فتجرّدت القبيلة من واجب حمايتهم أو المطالبة بحق من حقوقهم. وفي هذا الإطار يتنزّل مفهوم الصّعاليك في الاصطلاح، فهم "قوم خرجوا على طاعة بيوتهم وعشائرهم وقبائلهم...معتمدين على أنفسهم في الدّفاع عن حياتهم، وعلى قوتهم في تحصيل ما يعتاشون به، بالإغارة على الطّرق والمسالك، ومهاجمة أحياء العرب المبعثرة أفرادًا أو طوائف"[11]، ويمكن أن نميّز فيهم ثلاث مجموعات[12]:

1 .3 .1 الخلعاء الشّذّاذ: وهم الخلعاء الشّذّاذ الذّين خلعتهم قبائلهم وتبرّأت منهم لكثرة جرائرهم، مثل: حاجز الأزديّ، قيس بن الحدّاديّة، أبي الطّمّحان القينيّ... .

1 .3 . 2 أبناء الحبشيات السّود: ويسمّون -أيضًا- أغربة العرب، وهم الذّين سرى إليهم السّواد من أمّهاتهم؛ فنبذهم آباؤهم، ولم يلحقوهم بهم لعارِ ولادتهم، مثل: السّليك بن السّلكة، تأبّط شرًّا، الشّنفرى... .

1 .3 .3 المحترفون: وهم الّذين احترفوا الصّعلكة سواء أأفرادًا كانوا كعروة بن الورد أم جماعات، كقبيلتي هذيل وفهم، على أنّ المشتهر عن هذه المجموعة سعي فئة منهم إلى إعادة التّوازن الاجتماعي بين أفراد القبيلة، فقد كانوا يتقصّدون الأغنياء الأشحّاء بالإغارة، ليردّوا ما غنموه على الفقراء من أهل الحيّ.

2. الحجاج، الإيتوس، الشّعر، أيّ تقاطعات؟

يرتبط كلّ من الحجاج والإيتوس والشّعر بعلاقة مثلّثة تتفاوت من حيث درجة التعقيد؛ فإذا كان من المسلّم به أنّ الإيتوس لا ينفصل عن الحجاج بعدّه إحدى وسائله التّي يتوسّل بها لتحقيق الإقناع، بحكم أنّ الخطاب موصول بصاحبه، فكلّ خطاب سواء أشفويًا أم مكتوبًا يفترض صورة للجسد(الهيئة الجسميّة) والصّفات النّفسيّة (المزاج)،[13] إلّا أنّ العلاقة بين الشّعر والحجاج كانت مثار نقاش بين اتجاهين متناقضين منذ القديم، ولمّا تزل، ومدار النّقاش فيها هو قدرة الخطاب الشّعري على الاضطلاع بالوظيفة الحجاجيّة، بالنظر إلى أن وظيفته الأساسيّة هي التّخييل، والتّأثير بخلاف وظيفة الحجاج والتي تتمثّل أساسًا في الإقناع؛ وهو ما يعني أنّ مسار الحجاج عقليّ منطقيّ، بينما مسار الشعر قلبيّ عاطفيّ.

إنّ اعتبار الحجاج تابعًا للعقل متجرّدًا من التّخييل والعواطف ينمّ عن فهم سقيم له " إذ الأقرب إلى الصواب هو أنّ هذا البعد العاطفي هو بالأحرى الّذي يرشّح-أكثر من غيره-الخطاب لكي يكون حجاجيًّا"[14]؛ حيث إنّ طغيان الجانب العقلي على الخطاب مدعاة لنزوع الأخير نزعة برهانية علميّة، فيبتعد عن كونه حجاجًا نحو أن يكون استدلالًا، بينما يدفع طغيان الجانب العاطفيّ في الخطاب نحو الوجهة الحجاجيّة بالنّظر إلى أنّ مساحة العواطف هي مساحة المحتمل، وهي ذاتها دائرة اشتغال الحجاج بشكل أعمّ، ومساحة اشتغال الحجاج بالإيتوس بشكل أخصّ، إذ "إنّ اهتمام الخطاب البليغ[الحجاجي] بإيقاع التّصديق بدل خلق اليقين، واهتمامه بما يشبه الحقيقة وليس بالحقيقة هو الذي أفضى إلى الحجاج بدل الاستدلال، وأفضى إلى إدماج الشّخص في العملية الحجاجيّة بدل إقصائه منها كما يفعل المنطق الشّكلي"[15]. وفضلاً عن ذلك فإنّ من شأن التّخييل في الشّعر أن يدفع النّفس إلى أمر من الأمور انبساطًا أو انقباضًا، إعجابًا أو امتعاضًا فيصير إذّاك من أهمّ روافد الحجاج، إن لم يكن أهمّها على الإطلاق "وبخاصّة عند من يعتمدون على مشاعرهم أكثر ممّا يعتمدون على عقولهم"[16]، وهذا ما أدركه حازم القرطاجنّي وهو يعرّف الشّعر بقوله:" الشعر كلام موزون مقفّى من شأنه أن يحبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه؛ لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمّن من حسن تخييل له"[17]

يرتبط مفهوم القصدية المتضمّن في التّعريف أعلاه بنيّة التّأثير، وهو ما يؤسّس لرؤية تقوم على أنّ الحجاج بعدٌ ثاوٍ في ثنايا الخطابات، وركنٌ قارّ في تضاعيف الخطاب الشّعري، فالباثّ/ الصعلوك لا ينشئ خطابه/ مقطوعته إلّا وهو يستحضر الآخر الذي يسعى إلى التّأثير فيه في كلّ مرحلة من مراحل خطابه، فـ" يعرض عليه فكرة أو أفكارًا تشكّل محتوى الخطاب وغايته في آنٍ، أفكارًا لا يعرضها لمجرّد العرض، ولا يبلورها بمختلف طرائق وفنّيات القول لغاية التّوضيح، وفكّ اللبس والغموض فحسب، بل إنّه يهدف إلى إقناع المتلقي

بها"[18]، وعليه فمدار الحجّة هنا على أمرين؛ الأوّل: أنّه لا وجود لخطاب بريءٍ لا ينزع الباثّ من ورائه إلى أيّ قصد، والثّاني: أنّ الحجاج نابع من اللّغة موجود في كلّ خطاب حسب ما ترافع له نظرية الحجاج في اللّغة. ولئن كان تسليمنا بسلطة الشّعر الحجاجيّة، فإنّه من الضّروريّ ألّا نتعسّف في طرحنا هذا؛ لأنّ القيمة الحجاجيّة للخطاب الشّعري تتفاوت بريقًا وخفوتًا، وأكثر ما يكسب الخطاب الشّعري النجاعة والقدرة الفائقة على التّأثير في الاعتقاد، وتوجيه السّلوك هو ازدواج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع[19] على نحو ما يمكن استخلاصه من قول عروة بن الورد من الوافر:

ذَرِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرَّهُمُ الْفَقِيرُ[20]

يخاطب الشاعر حليلته، ويدعوها لأن تتركه يسير في البلاد، التماسا للرّزق؛ لأنّ من لم يطلب معاشا لنفسه، وقعد في داره دون أن يعمل شكا الفقر، ولقي من الظلم والحيف، ما كان ليلقاه لو كان غنيًّا، أمّا موضع الشاهد، فهو متعلّق بالبيت المذكور آنفًا؛ حيث جاء في بعض الأخبار أنّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال لمعلم ولده: "لا تروهم قصيدة عروة بن الورد التي يقول فيها:

ذَرِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرَّهُمُ الْفَقِيرُ

إنّها تدعوهم للاغتراب عن أوطانهم"[21].

يؤشّر النّهي عن رواية البيت السّابق إلى إمكانيّة الفعل الحجاجيّ للشّعر، وما كان ذلك ليكون إلّا لأنّها تنطوي على بعد حجاجي منضافٍ إلى البعد الإمتاعي، متمثّل في القياس الإضماري الآتي:

المقدمة الكبرى: من قعد دون أن يرتحل شكا الفقر.

المقدمة الصغرى: أنا أشكو الفقر.

النتيجة: سأرحل وأغترب.

بالإضافة إلى القياس الإضماري(الحجاج)، وكون الخطاب بيتًا شعريًا(التخييل)، تأتي صورة الصّعلوك عالي الهمّة (الإيتوس) لترفع المنسوب الحجاجي للبيت إلى أقصى درجات الإذعان والإقناع، فيندفع المتلقّي إلى السّير في مفاوز الصّحراء فرارًا من الفقر، وطلبًا للغنى.

3. تجلّيات الإيتوس في شعر الصّعاليك:

يكتسب هذا المبحث شرعيته استنادًا إلى قول أرسطو:" الصّالحون هم المصدَّقون سريعًا بالأكثر في الأمور الظاهرة"[22]؛ لقد ربط بين سمت الخطيب والإقناع، وعلى هذا النّحو نحا الصّعاليك؛ فحاولوا أن ينصّبوا لأنفسهم مقاماً محمودًا بين أبناء قبائلهم، وأن يظهروا في صورة الصّالحين النّبلاء الذين جعلوا كرامتهم في منزلة لا تقبل المساومة، فحملوا -تبعًا لذلك-حيواتهم على أكفّهم، وغامروا بأنفسهم في سبيل إثبات ذات، وبلوغ شرف مروم، وبناء هوية خاصّة يمكن استكمال رؤية صورتها بجمع كلّ مقطوعة شعر إلى نظيرتها، وضمّ كل صورة عن صعلوك إلى مثيلتها.

عدّ أرسطو مجموعة الفضائل الأخلاقية التي تعطي الخطيب المصداقية وجعلها ثلاثة؛ حيث يقول: "وقد يكون المتكلّمون مصدّقين لعلل ثلاث: لأنّا قد نصدّق من قبل هذه الثّلاثة الأوجه كلّها دون التّثبّت، وهي: اللّب، الفضيلة، والألفة، فقد يكذب جميع الواصفين أو المشيرين إمّا من أجل عدم هذه العلل أجمع، وإما من أجل عدم شيءٍ منها"[23]، وبعبارة أخرى فالخطيب المقنع هو الحصيف صاحب اللّب، سديد الرّأي؛ لأن المغفّل ليس أهلا للتصيحة، وهو صاحب الفضيلة المستقيم أخلاقًا الخيّر طبعًا؛ لأنّ الشرّير لا ينصح، ولا يعتدّ بنصيحته إن فعل، وهو البارّ الحليم الأليف؛ لأن الكاره للنّاس، النافر منهم قد تمنعه الكراهية من إسداء النّصيحة، وهذه الصّفات وغيرها هي ما نلفي كثيرًا من الصّعاليك قد تمثّلوها حقًّا أو ادّعاءً في مقطوعاتهم، على نحو ما يأتي:

1. 3 إيتوس اللّبيب الحازم:

حرص الصّعاليك على الرّفع من قيمة ذواتهم والظّهور بمظهر الألبّاء الحذّاق الذّين خبروا الحياة بتفاصيلها، وواجهوا الخطوب العظيمة برباطة جأش وبعقل راجح، فهم لا يبرمون أمرًا ولا يمضون عزمًا ولا يحكمون أمرًا إلّا إذا بدا صلاحه، فإذا هم همّوا بالأمر خاضوا ما عزموا عليه دون خوف أو ضعف؛ لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّ من ضيع الحزمَ لم يظفر بحاجته، وصورة ذاك الذّي نقول قول تأبّط شرّا من الطّويل:

إذا المَرءُ لَم يَحتَـــــل وَقَد جَدَّ جَـدُّهُ أَضاعَ وَقاسى أَمرُهُ وَهوَ مُدبِرُ
وَلَكِن أَخو الحَـــزمِ الَّذي لَيسَ نازِلاً بِهِ الأَمرُ إِلّا وَهوَ لِلأَمرِ مُبصِرُ[24]

يمثّل البيتان أعلى درجات الحزم واليقظة، فالمرء إذا نزل بِهِ مَكْرُوه وَلم يجد لَهُ ناصرا فسبيله أَن يحتال؛ لأنّه إن لم يحتل فِي خلاصه مِنْهُ أضاع أمره وكابد مِنْهُ مَا يكابده وَهُوَ مُوَلٍّ مُدبر[25] وليس الحازم الذي إن وقع مهلك عرف سبيل النجاة منه، إنما الحازم صَاحب التجربة والتَّدْبِير الَّذِي يستعد لِلْأَمْرِ قبل نُزُوله ويرى الأمور بما تؤوب وتعقب قبل أن يكون لها وجود بساحته، فإن هو استشرف ما سيكون وعرف ما الذي ستؤول إليه وقائع الأحداث لم تعيه حيل للنجاة، ولم تدئبه منافذ الخلاص، فجودة رأيه والحذر ممّا يخاف من شرّه تجعله متيقّظًا قادرًا على التحكّم في إرادته، وحسن إدارته لما ألمّ به.

لم يكن تأبّط شرًّا -من خلال مقطوعته-يتقصّد الإعلاء من منزلة الحزم وقدر الحازمين بقدر ما كان يبتغي تقديم نفسه في صورة النّبيه صاحب الرّأي السّديد ولو بشكل مباشر، فـ" تقديم الذّات جزء أصيل من الحياة اليوميّة للفرد في المجتمع حيث يقوم الأفراد بتقديم أنفسهم للآخرين بشكل واعٍ أو غير واعٍ"[26]. لقد تمكّن الشّاعر لسداد رأيه وعمق بصيرته، ورجاحة عقله من النّجاة من بني لحيان يوم حاصروه وقد أحكموا خطة؛ ليوقعوا به عندما كان يشتار العسل من فوق الجبل، فلمّا رآهم يترصدونه، خشي أن يقع في أيديهم، فانتحى من الجبل ناحية بعيدة عنهم، وصبّ ما معه من العسل فوق الصخر، ثم انزلق عليه حتى انتهى إلى الأرض، وأسلم قدميه للريح، فنجا من قبضتهم[27]، وفضلًا عن صورة الحاذق النّبيه والحازم، فإنّ الشّاعر وهو يلقي مقطوعته

يمارس فعلًا حجاجيًا بالنّظر إلى السّياق التّداولي؛ حيث يغدو فعله بمثابة الإثبات لقوله، فإذا كان القول هو الادّعاء، والاحتيال للهروب هو الإثبات، فإنّ النّتيجة هي النّجاة والخلاص.

3 .2 إيتوس الفاضل والخيّر:

لقد كان لرغبة الصّعلوك في بناء جسر الثّقة مع المتلقّين، وتحقيق المصداقيّة المرجوّة أثر في بناء صورة الخيريّة التّي ينشدها من خلال ظهوره بمظهر المستقيم الفاضل؛ لأنّه يعلم أنّ صدقه وإخلاصه واستقامته تجعله مثالًا يحتذى به، وممّا يمكن التّمثيل به قول عروة بن الورد من الطّويل:

إِنِّي امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِيَ شِـــرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِنَائَكَ وَاحِـــدُ
أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى بِجِسْمِي مَسَّ الْحَقِ وَالْحَقُّ جَاهِدُ
أُقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَـــارِدُ[28]

يصّور عروة في المقطوعة السّابقة نفسه في صورة التّحيل شاحب الوجه الّذي ضمر جسمه لكثرة ما أشرك غيره معه في طعامه وشرابه، فهو امرؤ يقسم ما يحصّله على نفسه وعلى غيره بل إنّه ليقتّر على نفسه، ويحرمها من الطّعام فيجوع ويأكل غيره، وحين يحلّ الشتاء ووقت الجدب والضيق يؤثر باللبن أضيافه ويحسو الماء باردًا، أمّا الهازئ فأناني ثخينٌ جسمُه من التّخمة لا يشركه أحد لا في إناء طعامه، ولا في وَطْب شرابه[29].

لقد كان انطواء إيتوس الخيريّة بعدّه قيمة أخلاقيّة عامّة على مجموعة من الإيتوسات الفرعيّة من قبيل: حبّ الخير للغير، الكرم، الرّضا، التّضامن، الإيثار... مدعاةً لكسب تعاطف المتلقّين انطلاقًا أوّلا من أنّنا" نكتسب رضا الآخرين بواسطة الأخلاق"[30] وثانيًا لكون هذه الأخلاق -بحكم أنّ الاتّفاق بشأن خيريتها واقع- تؤثّر بقدر تواترها، إنّها تجعل المتلقّي وسط إيتوسات متراكمة توجّه المتلقّي الوجهة الحجاجيّة ذاتها دون أن يشعر؛ فالصّعلوك وهو يتلفّع رداء محبّ الخير يؤثّر لكن بقدر أقلّ من تأثيره لو ظهر في صورة محبّ الخير الرّاضي، وهو في صورة محبّ الخير الرّاضي أقل قدرة على التّأثير في من حوله فيما لو ظهر بصورة محبّ الخير الرّاضي، والمتضامن، وفضلا عن هذا، فالمتلقّون أصناف ومداخل التّأثير فيهم متعدّدة؛ فمنهم المتأثّر بإيتوس الإحسان؛ لأنّه محسن، ومنهم المتأثّر بإيتوس الرّضا لأنّه راضٍ، ومنهم المتأثّر بإيتوس التّضامن؛ لأنّه متضامن مع غيره.

3 .3 إيتوس البارّ الحليم:

يعرّف أرسطو الحلم بأنّه السّكون أو وقار الغضب وفتوره[31]، وبذلك فإنّه يجعله نقيضًا للغضب، فالحلم إذن، هو رجوع الشّخص إلى حالته الطّبيعية من الهدوء والرّواء، وتبعًا لذلك فالحليم شخص يتحمل المواقف الصعبة والتحديات بروية وسلامة ذهنية دون أن يفقد أعصابه أو يتصرف بعدوانية وهذا ما يمنحه القدرة على التعامل بسلام وتسامح مع الأخطاء والسلوكيات السّلبية للآخرين، وبهذه الصّفة تفاعل عروة بن الورد مع أصحاب الكُنَيف يوم تنكّروا له بماوان، وكان من خبره أنّه موّل نفرًا من الصّعاليك وجهزهم وأغار بهم، فظفر وهو معهم بمائة من الإبل وسبى امرأة، فلما جاءت القسمة أراد أن يحُور المرأة في نصيبه فأبوا ذلك عليه إلا أن

يدخلها في أسهم الغنيمة، فنزل لهم عن نصيبه من الإبل ثم طلب منهم راحلة يحملها عليها فأبوا ذلك عليه، فخز ذلك في نفسه، فقال مواسيًا نفسه من الطّويل:

أَلا إِنَّ أَصحابَ الكَنيفِ وَجَدتُهُم ... كَما الناسِ لَمّا أَخصَبوا وَتَمَوَّلوا
وَإِنّي لَمَدفوعٌ إِلَيَّ وَلاؤُهُم ... بِاِوانَ إِذ نَمشي وَإِذ نَتَمَلمَلُ
فَإِنّي وَإِيّاكُم كَذي الأُمِّ أَرهَنَت ... لَهُ ماءَ عَينَيها تُقَدّي وَتَحمِلُ
فَلَمّا تَرَجَّت نَفعَهُ وَشَبابَهُ ... أَتَت دونَها أُخرى حَديداً تُكَحِّلُ
فَباتَت لِحَدِّ المِرفَقَينِ كِلَيهِما ... تُوَحوِحُ مِمّا نابَها وَتُوَلوِلُ
تُخَيَّرُ مِن أَمرَينِ لَيسا بِغِبطَةٍ ... هُوَ الثَكَلُ إِلّا أَنَّها قَد تَجَمَّلُ[32]

تعبر الأبيات السّابقة عن شعور بالمرارة واحتراق في جوف الشّاعر، فألمه شديد من تنكّر أصحاب الكنيف له مع سابق أفضاله عليهم، وتقديمه إياهم على نفسه، إلى الحدّ الّذي صاروا ينسبون إليه فيقال عنهم أنّهم موالي عروة، إنّه يصوّر حاله معهم كحال الأمّ التّي فدت ابنها بروحها وبذلت في سبيل راحته شبابها، فلمّا تمّ شبابه ورجت من النّفع تزوّج فغلبت الزّوجة الأمّ على الابن فترك أمّه من أجلها، فلمّا حلّ البلاء بساحة الأمّ طفقت تضرب بيديها صائحة داعية بالويل والثّبور، إنّها بين مساءتين؛ مساءة أن يحيا ابنها وتستأثر به الزّوجة دونها، ومساءة أن يموت فتثكله، وفي كلّ شرّ!. لم يكن أمام عروة إلّا سبيلان إمّا أن يجيب أصحابه إلى مطالبهم فلا يبقى معه شيء وهو صاحب الفضل فيما هم عليه من غنم وسبي، وإمّا أن يحمل عليهم فيقتلهم وينزع ما معهم، لكنّه إن فعل ذلك أفسد ما كان صنع.

لقد راح عروة يواسي نفسه، ويقول إنّ أصحاب الكنيف ناس كغيرهم، ومن شأن الناس أنهم إذا تحسنت أحوالهم، تنكروا لمن كان صاحب الفضل عليهم، وتجاهلوا كل ما قام به من صنيع نحوهم، وبذلك صان لنفسه وكرامتها وتجنّب خلق الصّراع، بله أن يفاقمه، فأظهر نفسه في صورة الحليم الّذي يواجه المصائب بروية وحكمة، وفي صورة البارّ الّذي وصل أصحابه ومنعوه، أعطاهم وحرموه، انتصر لهم فتنكّروا له على الرّغم من قدرته على البطش بهم وتشتيت شملهم.

إنّ ممّا يعلي من القيمة الحجاجيّة للملفوظ السّابق استناد الشّاعر إلى الحجّة المثال؛ حيث مثّل موقفَه مع أصحابه بموقف الأم مع ابنها، ليمعن في إظهار مقدار حلمه على أصحابه، فلئن كانت صورة البارّ الحليم ثابتة عند جميع المتلقّين من خلال مفهوم الملفوظ ومنطوقه، إلّا أنّ قدرها متفاوت وقيمتها متباينة، وهذا ما يضطلع المثال - بعدّه حجّة-ببيانه، فالنّاس جميعًا في وكلّ الأزمان والأكوان يدركون مدى حلم الأمّ على وليدها وفضلًا عن البيان فإنّ المثال بحكم أنّه "بناء بنية واقعيّة تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقة بفضل تشابه الصّلات"[33] يستعمل برهانا يُتوسّل به لتحقيق الإقناع، فهو بمثابة الإثبات للقضيّة المطروحة (الشّاعر بارّ حليم).

لم تكن إيتوسات اللّبّ، والفضيلة والبرّ الإيتوسات الوحيدة التّي ظهر الشّعراء الصّعاليك وفقها من خلال مقطوعاتهم الشّعريّة، بل صاحبتها إيتوسات كثيرة رسمت ملامح شخصيات الشّعراء الصّعاليك.

4. الإيتوس والهويّة:

أسهم ظهور الشّاعر الصّعلوك وفق إيتوسات الفطن، والفاضل، والبارّ- المعروضة آنفًا- وإيتوسات سيأتي بيانها لاحقًا في بناء صورة إيتوس متكامل هو ما يمكن تسميته بإيتوس الهويّة (**L'ethos d'identification**) الّذي تنبثق عنه إيتوسات فرعيّة يحقّق تواترها ضمن مختلف المقاطع الشّعرية أعلى درجات الإثارة والتأثير، وهذه الإيتوسات هي:

4 .1 إيتوس القدرة: (L'ethos de puissance):

تقتضي هذه الصّورة من الخطيب أن يظهر في خطاباته قدرته على أن يكون رجلَ أفعال لا مجرد رجل أقوال، ولتحقيق ذلك يتعين عليه أن يظهر قوةً في الصّوت والكلمة[34] وهذا ما تجلّى في موقف تأبّط شرًّا مع بني لحيان، فهو لم يُعلِ من شأن الحزم دون أن يمثّله، ولم يتغنَّ باللّبابة دون أن يتّصف بها، فهو القؤول الفعول، أثبت هذا قول اللّسان، وشهادات الأقران، وأحداث الزّمان، يقول في ذلك عن نفسه من المتقارب:

وَكُنْتُ إِذَا مَا هَمَمْتُ اعْتَزَمْتُ وَأَحْرِ إِذَا قُلْتُ أَنْ أَفْعَلَا[35]

وفيه، وفي جمع من أصحابه يقول مُرّة بن خليف من الرّجز:

يَا ثَابِتَ الخَيْرِ وَيَا ابْنَ الأَخْنَسِ وَيَا ابْنَ بَرَاقِ الْكَرِيمِ الأَشْـــوَسِ
وَالشَّنْفَرَى عِنْدَ حُدُودِ الأَنْفُسِ أَنَا ابْنُ حَامِي السِّرْبِ فِي المَغْمَسِ
نَحْنُ مَسَاعِيرُ الْحُرُوبِ الضُّرَّسِ[36]

وممّا يثبت صدق مقالته حدثٌ جليل أردى فيه الغول صريعة؛ حيث يقول مؤرّخًا الواقعة من الوافر:

أَلا مَن مُبلِغٌ فِتيانَ فَهـــــمٍ بِما لاقَيتُ عِندَ رَحى بِطـــانِ
بِأَنّي قَد لَقيتُ الغولَ تَهـوي بِسَهبٍ كَالصَحيفَةِ صَحصَحانِ
فَقُلتُ لَها كِلانا نِضوُ أَيـــن أَخو سَفَرٍ فَخَلّي لي مَكـاني
فَشَدَّت شَدَّةً نَحوي فَأَهوى لَها كَفّي بِمَصقولٍ يَمـــــاني
فَأَضرِبُها بِلا دَهَشٍ فَخَـرَّت صَريعاً لِليَدَينِ وَلِلجِـــــرانِ[37]

تندفع الأبيات أعلاه -من وجهة نظر إيتوسيّة- نحو الوجهة الحجاجيّة؛ ففي الوقت الّذي تؤسّس فيه كلّ وصلة فيها لإيتوس القدرة، بإظهار الصّعلوك شديدًا، فعلًا ومقالًا، فإنّها تؤسّس بالموازاة مع ذلك لإيتوس الشّجاعة وقوّة النّفسية، يؤشّر لذلك عزم الصّعلوك على الفعل مهما كان، ومصارعته للفرسان، وإهلاكه الغيلان.

4 . 2 إيتوس الإنسانية (L'ethos d'humanité):

لم يكن ملمح الصعلوك الخطابي على نسقٍ واحدٍ مستمر، يظهر فيه بصورة الشّجاع القويّ الّذي لا يشقّ له غبار؛ لأنّ ذلك خليق به أن يؤدي إلى تشويه صورته عند المتلقّين وظهوره بشكل كاريكاتوريّ غير مقبول، فيفقد تبعًا لذلك تعاطفهم، وتختل علاقة التّصديق بينه وبينهم، لقد ظهر الصعلوك في كثير من جوانب

خطابه إنسانيًا تعتريه المشاعر التّي تعتري غيره من البشر من خوف وألم ورهبة ...؛ لذا كان من اللّائق له أن يعترف ببعض جوانب النقص التّي فيه، وببعض الهنات التّي كان عرضة لها ليس تقليلًا من شأن نفسه، ولا حطّا من قدرها، بإظهار جوانب الضّعف التّي فيها، ولكن "سعيًا لبناء إيتوس الشّجاعة والصّدق"[38] ومن ذلك قول صخر الغيّ من المتقارب:

وَمَاءٍ وَرَدْتُ عَلَى زَوْرَةٍ كَمَشْيِ السَّبَنْتَى يَرَاحُ الشَّفِيفَا[39]

لقد صوّر الصّعلوك وروده الماء خائفًا يترقّب بمشي النمر حين يستقبل ريحا بادرة ندية، فهو وإن كان شجاعًا فاتكًا إلّا أنّه حذر إلى الحدّ الّذي لو رآه من لا يعرفه ظنّ أنّه جبان هيّاب، وأكث من إيتوس الحذر الّذي يحلّيه البيت فإنّ الصّعلوك يعترف بتولّيه في ساح القتال ولا يرى في ذلك بأسًا ولا معرّة، بل يرى في ذلك قدرة على تقدير الموقف، فللكرّ وقته وللفرار وقته، ومن ذلك قول أبي خراش الهذلي من الطّويل:

فإنْ تزعمي أنّي جَبُنْتُ فإنّني أَفِرُّ وأَرمِـــي مَرّةً كلَّ ذلـــــك
أُقَاتِلُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتِلًا وَأَنْجُو إِذَا مَا خِفْتُ بَعْضَ المَهَالِكِ[40]

يرافع أبو خراش في البيتين أعلاه من أجل أن يظهر في صورة الشّجاع، الّذي يبذل مهجته، ويصبر على لأواء الحرب، ويصدق الضراب، لكن إذا ما لاح شعاع الخطر ألفيته فارًّا بنفسه ناجيًا بجلده، ولئن كان بهذا الوجه يعترف بنقصه إلّا أنّه بوجه آخر يعلي من شأن نفسه، فهو العدّاء الذي لا يدانيه العدوّ في حضره، ولا يشاكله في حسن تقديره وتدبيره، وهو المتزن والمعتدل اعتدالا ينبئ عن ثقته في نفس، فلا يندفع الاندفاع الّذي يرديه، ولا يتريّث التريث الّذي يزري به.

4 . 3 إيتوس القائد (L'ethos de chef):

يتميز إيتوس القائد" بأنه مُوجَّه بين الذات والآخرين، إنه بناء للذات لكي يعتمده الآخرون، ويتحدّث عن كيانٍ ما من المفترض أنه يمثل نسخةً مثلى للذات"[41] وبهذا الإيتوس أظهرت واقعةُ إنكار أصحاب الكنيف- المذكورة آنفًا- على عروة بن الورد وتمرّدهم عليه عروةَ، لقد ظهر في صورة القائد العظيم الّذي يوجّه الجماعة إلى ما فيه خيرها،" إنّه القائد المجمع الذي يجمع القطيع، ويصطحبه مُسبقًا، ويضيء طريقه بصبر هادئ، وبإيجابية"[42] فيكون مثالًا للقائد الرّاعي الّذي يحسن بمن يتلقّى عنه قوله أن يتبعه، وهذا ما كان في واقع الحال " فقد انتدب رجل منهم، فجعل له راحلة من نصيبه"[43].

غير بعيد عن هذه الصّورة تتعالى في مقطوعات الشّعراء الصّعاليك صورة القائد السّيّد وهو الذي يتّخذ موقف الضّامن للقيم الحامي لها[44]؛ لذا فإنّا نجده يتمثّلها ويحثّ غيره عليها، وممّا يمكن التّمثيل به لهذه الصّورة قول عروة من الطّويل:

لعل انطلاقي في البلاد وعزمتي وشدّي حيازيم المطية بالرحل
سيدفعني يوما إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل[45]

لقد رأى عروة أن ما يحويه من النعم بالغارة، وينالُه بالسرقة والسّلة، إنما هو مال منعت منه الحقوق، ودُفع عنه بالبخل والعقوق، فأرسله الله إلى صاحبه وسبّبه له ورزقه إياه[46]، وهو في ذلك ينتصر لقيمة الكرم، وينصّب من نفسه حاميًا لها ومنافحًا عنها، ولو اقتضى الأمر الاغتراب، ومناكفة الأعداء، وصدق الضّراب.

إنّ ممّا يرسّخ الصّورة الإيجابية عن الصّعلوك، ويدفع المتلقّي إلى الاستئناس به ومدّ حبل التّصديق نحوه اشتغال أكثر من إيتوس في الملفوظ الواحد؛ ففي التّمثيل السّابق تجلية لإيتوس القائد السّيد الحريّ بالاتباع، وإظهار له في صورة الكريم عالي الهمّة الذّي يرفض القعود وسط العيال لئلّا يعدّ منهم على نحو ما يصوّره السليك بن السّلكة من الوافر:

فَلا تَصِلي بِصُعلــوكٍ نَؤومٍ ... إذا أَمسى يُعَدُّ مِنَ العيَـــالِ
وَلَكِن كُلُّ صُعلوكٍ ضَروبٍ ... بِنَصلِ السَيفِ هاماتِ الرِجالِ[47]

4 . 4 إيتوس الطّبع (L'ethos de caractère):

يحتفي إيتوس الطّبع بقوة الرّوح في الوقت الذّي يحتفي فيه إيتوس القدرة بقوة الجسد، إنّه يتعلّق بكلّ ما يمكن أن يظهر قوة الشّخصية، ويتجلّى في صور منها التّوبيخ، الاستفزاز،[48] ومعنى التّوبيخ" التعبير عن الانتقادات والاستياء بلغة قوية ولكن محسوبة ومسيطرة، مع برهان على الانزعاج الشخصي والمنبعث من تقدير ذهني يحتاج إلى التعبير عنه بقوة"[49] أمّا الاستفزاز فهو" التصريحات التي تهدف حصرًا إلى تحفيز شخص ما"[50].

حظي إيتوس الطّبع بحضور كثيف ضمن مقولات الصّعاليك، في صورة قول عروة بن الورد وهو يتوجّه إلى الصعلوك الشّريف المغامر محتفيًا، وإلى الوضيع عاذلًا:

لَحَى الله صُعلُوكًا إذا جَنَّ لَيلُهُ ... مصافِي المُشاشِ آلفًا كل مجـزرِ
يَعُدُّ الغِنَى مِن نفسِهِ كل ليلَةٍ ... أصابَ قراهَا من صَدِيقٍ مُيَسّرِ
ينامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ ناعِسًا ... يَحُتُّ الحَصَى عنْ جَنْبِهِ المُتَعَفِّـرِ
يُعِينُ نِسَاءَ الحَيِّ مَا يستعِنَّـهُ ... ويُضْحِي طَلِيحًا كالبعيرِ المحسـرِ
ولله صعلوكٌ صفيحةُ وجهِهِ ... كضوءِ شِهَابِ القَابِسِ المتنـــوّرِ
مطِلٌّ على أعدائِهِ يزجُرُونَهُ ... بساحتِهِم زجرَ المنيحِ المشَهَّـــرِ
إذا بعدُوا لا يأمنُونَ اقترابَه ... تَشَوُّفَ أَهْلِ الغائبِ المُتَنَظِّـــرِ[51]

فالصعلوك الذي يعجب به عروة، ويتمثّل أخلاقه صعلوك وجهه مشرق بأعماله المجيدة، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم، فيظفر منهم بكل ما يريد، رغم صياحهم به وزجرهم له، وهم مما بعدوا لا يأمنون غزوه، بل إنهم لينتظرونه انتظار الأهل للذّاهب، ويترقّبونه ترقّب الحاضر للغائب، أمّا الصّعلوك القعود فهو صعلوك لئيم خامل لا يطلب الزّاد إلا لنفسه، غير مبالٍ بما وراءه من قرابته وعياله، ينام باكرا ليقوم لأشغاله التّي لا تجاوز محيط الحيّ شأنه شأن بقيّة النسّوة اللائي يستعنّ به في أعمالهن فلا يمسي إلّا كالبعير الضّعيف الذي أرهقته الأحمال.

إنّ احتفاء عروة بصورة الصّعلوك المغامر عالي الهمّة، واحتقاره الصّعلوك الخامل القعود يمثّل متانة في شخصيته هو بشكل أخصّ، وقوّة في نفسية الصّعلوك بشكل أعمّ، فهو ثائر يرفض هذا الواقع الذي أدرجه ضمن طبقة العبيد الذين قنعوا بالذّل ورضوا به ولم يجدّوا في بحث الخلاص منه، إنّه يظهر سخطه وغضبه الشّديدين لوجود هذه الفئة الذّليلة العاجزة التي تقتات على ما يبقيه السّادة والكبراء، وتعمل من الصّباح إلى المساء دون كلل أو ملل إلى القدر الذّي تصاب فيه بالإرهاق والعياء.

يتضمّن رفض الشّاعر لظاهرة ملء البطون، والخلود إلى الرّاحة والدّعة، وإشادته بروح المغامرة استفزازًا مضمرًا، الهدف منه دفع القاعدين والكسالى إلى التّفاعل، وتحرير أنفسهم، ورفض الضيم وإباء المهانة، على نحو ما يصوّره الشّنفرى، من الطّويل:

ولكنَّ نفساً حرَّةً لا تُقيـــــــــمُ بي على الخَسفِ إلّاَ رَيثما أتحوَّلُ
وفي الأرضِ منأى للكريمِ عن الأذَى وفيها لمَن رامَ القِلَى متعــزَّلُ[52]

يشيد الشّنفرى بصورة الصّعلوك المغامر البطل الذّي يهجر الناس لا من أجل طلب العيش وحوزة المال، فلو أراد ذلك لتحقق له أكثر مما يريد، ولكنه يهجرهم حفاظا على مروءته وصونا لكرامته، ولو كلّفه ذلك عظيم الكُلف، وأيّ كلفةٍ أعظم من الموت؟ لقد أبدى استعداده للقائها وطلب من صاحبته أن تدعه وشأنه ليذهب مع رفاقه حتى يحقق ذاته، ثم لتقل بعد ذلك ما تشاء، فإنه لن يموت إلا مرة واحدة؛ حيث يقول من الطّويل:

دَعيني وَقولي بَعدُ ما شِئتِ إنَّني سَيُغدَى بِنَعشي مَرَّةً فَأُغَيَّبُ[53]

ويقول من الطّويل أيضًا:

إذَا مَا أَتَتْنِي مَنِيَّتِي لَمْ أُبَالِـــــــهَا وَلَمْ تُذْرِ خَالَاتِي الدُّمُوْعَ وَعَمَّتِي[54]

إنّه يطالب كل حرّ أن يرحل عن موطن الذل، فأرض الله واسعة ولا عذر لمن يقيم على الضيم ويرضى بالهوان.

4 .5 إيتوس التّضامنأعلى النموذج (L'ethos de solidarité):

حرص الشّعراء الصعاليك على الظهور بصورة المتضامنين مع بعضهم بعضًا، و"التضامن يتميز برغبة الأفراد في الوحدة، حيث يقفون على نفس مستوى أعضاء المجموعة التي يعيشون معها، وبالتالي لا يعتبرون أنفسهم أفضل من أعضاء هذه المجموعة، بل على العكس يشتركون في قيمها وطموحاتها وأفكارها ومشاكلها"[55]، وفي هذا الإطار يتنزّل قول أبي خراش من الطّويل:

وَإِنِّي لأُثْوِي الْجُوعَ حَتَّى يَمَلَّنِي حَيَاءً وَلَمْ تَدْنَسْ ثِيَابِي وَلا جِرْمِي
وَأُصْطَبِحُ الْمَاءَ الْقَرَاحَ وَأَلْتَقِي إِذَا الزَّادُ أَمْسَى لِلْمُزَلَّجِ ذَا طُعْـــمِ
أَرُدُّ شُجَاعَ الْجُوعِ كَيْ تَعْلَمِينَـهُ وَأُوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِـــكِ بِالأُدْمِ
مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وَذِلَّـــةٍ وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْـــمِ[56]

تصوّر المقطوعة أبا خراشٍ في صورة المتضامن مع أهل المرأة، فهو الذّي يطيل حبس الجوع حتّى يملّه، ويشرب الماء البارد مؤثرًا ذي الشّهوة بالطّعام، حتّى تتحرك أمعاؤه ويقرقر بطنه ويضطرب كما يضطرب

الشّجاع، ولكنّه لا يقيم له وزنًا؛ لأنّه يرى استئثاره بالطّعام دون المرأة وأهلها عارًا وذلّة لا ينبغي لمثله أن يتدنّس به، لقد ارتضى الموت بدلًا من الهوان الّذي يلحق به.

لا يبدو أبو خراش الصّعلوك بهذه الصّورة متعاطفًا فحسب؛ "لأن التعاطف يتميز بالتفاوت بين الشخص المعاني والشخص الذي لا يعاني"[57]، ولا يبدو متضامنًا؛ لأنّ "التضامن يكون متساوياً وتبادلياً"[58]، بل يبدو حييًّا مؤثرًا غيره على نفسه، صابرًا على الجوع، صائنًا بطنه عمّا يلزم عذلًا أو مذمّة، فإذا عجز عن المقاومة وضعف أمام سطوة الجوع اضطر أن يحفظ رمقه بشيء من تراب، ولا يقبل شيئا من أحد يدل له أو بما عليه بعد ذلك، وفي هذا غاية الصبر والإباء، كقول الشّنفرى من الطّويل:

أُديمُ مِطالَ الجوعِ حتَّى أُميتَـــــهُ وأضربُ عنه الذِّكرَ صَفحاً وأذهلُ
وأستفُّ تُربَ الأرضِ كي لا يرَى له عليَّ من الطَّول امرؤٌ متطـــوِّلُ[59]

إن لظهور أبي خراش في ثوب المتضامن مع المرأة وأهلها مشاركةً لها في حاجاتها، ومشاركة لها في ظروفها، بل إنّ فيه احتمالًا للأذى بدلًا عنها، وفي صبر الشّنفرى على الجوع كرامةٌ وعزٌ وصبرٌ لا يستطيعه إلا النّبلاء.

مثّلت عملية تحديد هوية الصّعاليك من خلال الوقوف عند إيتوسات الهوية دعوة للمتلقين -عبر مسارات التّاريخ- لالتماس العذر لهم في ما قبح من سلوكياتهم، ونداءً للتّجمّع حول أفكارهم وقناعاتهم، فهم شرفاء يتمثّلون قيم الخير، وأخلاق النّبل التّي لا تختلف الأقوام على نبلها، وهذا التّمثّل ليس ادّعاءً كاذبًا، بل ادّعاء صادق أثبتته المواقف، وبرهنت عليه الحوادث، وأكّدته ملامح الفضل والكفاءة والخير التّي ظهروا عليها ضمن مقولاتهم الشّعرية.

خاتمة:

مكّنت الدّراسة الحجاجية لنماذج مختارة من أشعار الصّعاليك من الوقوف عند جملة من النتائج، هذا بيانها:

- ظهر الشّعراء الصّعاليك -ضمن النّماذج المختارة- بصورة طيّبة تناقض تمامًا الصّورة المشوّهة التّي تشكّلت عنهم قبل تلقّي خطاباتهم.
- إن في النّظر إلى الشّعراء الصّعاليك نظرة انتقاص تجنٍّ وتعسف، وادّعاء دحضته المواقف وصور الخير والنّبل التّي تجلّوا وفقها ضمن مقولاتهم الشّعريّة.
- تميّزت طائفة الصعاليك بهويّة خاصّة واكبت منهج حياتهم الخاصّ والّذي يقوم على الغزو والغارات على الأغنياء والبخلاء بهدف توزيع الغنائم على الفقراء والمعوزين، فقد كانت لهم صفات نفسية وبدنية خاصة تؤهلهم للقيام بهذا العمل، كالشجاعة والصبر وشدة المراس وتحمل المشاق وسرعة العدو.
- مثّل ظهور الشّاعر الصّعلوك وفق أكثر من إيتوس في المقطع الشّعريّ الواحد مدعاة لزيادة الإقناع، فقد شكّل صورة متكاملة وحالة مثاليّة يسعى كلّ من رآها إلى تمثّلها وسلوك مسلك أصحابها.

هوامش:

[1] ابن قتيبة، عيون الأخبار،1986، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 200.
[2] ينظر يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، 1978، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص :289-290.
[3] ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، د.ت، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص: 778.
[4] نفسه، ص: 779.
[5] شاييم بيرلمان، نحو نظرية فلسفية في الحجاج ضمن كتاب: فلسفة الحجاج البلاغي-نصوص مترجمة لشاييم بيرلمان، ترجمة: أنوار طاهر، 2019، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ص: 15.
[6] أرسطوطاليس، الخطابة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، 1979، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت، ص:10.
[7] رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، 2011، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص:124.
[8] محمد مشبال، في بلاغة الحجاج-نحو مقاربة بلاغية حجاجيّة لتحليل الخطاب،2017، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ص:187.
[9] ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ص: 2451-2452، مادة: صعلك.
[10] مالك بن أنس، الموطّأ، الحديث رقم: 519/2155، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، 2004، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ص:836-837.
[11] جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1992، ج:09، منشورات جامعة بغداد، العراق، ص:601.
[12] ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د.ت، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص:375.
[13] ينظر، دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، 2008، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص: 58.
[14] محمد الولي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون أرسطو شاييم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، المجلد: 40، العدد:02، 2011، ص:16.
[15] محمد مشبال، في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص:169.
[16] محمّد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 1994، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، الجيزة، مصر، ص:65.
[17] أبو الحسن حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، 1986، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص: 71.
[18] سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، 2011، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ص: 67.
[19] ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول احوار وتجديد علم الكلام، 2000، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص: 38.
[20] عروة بن الورد، ديوان عروة بن الورد أمير الصّعاليك، 1998، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ص: 79.
[21] ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، 1982، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ص: 535-536.
[22] أرسطو، الخطابة، ص:10.
[23] المصدر نفسه، 81.
[24] ثابت بن جابر، ديوان تأبّط شرّا وأخباره، 1984، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص: 86-87.
[25] ينظر: الخطيب التبريزيّ، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، 2000، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ص: 61.

[26] مصطفى رجوان، الكائن البلاغي، 2021، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، 250.

[27] ينظر: جابر بن ثابت، ديوان تأبط شرًا وأخباره، ص: 87.

[28] عروة بن الورد، الديوان، ص: 61.

[29] ينظر: جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 624.

[30] دومنيك مانغينو، مشكلات الحجاج بواسطة الإيتوس من البلاغة إلى تحليل الخطاب، مقال ضمن: التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف: أحمد قادم وسعيد العوادي، 2016، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ص: 766.

[31] أرسطو الخطابة، ص: 88.

[32] عروة بن الورد، ديوان عروة بن الورد أمير الصّعاليك، ص: 91 وما بعدها.

[33] أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، تر: رضوان العصبة، 2017، دار أفريقيا الشّرق، الدار البيضاء، المغرب، ص: 215.

[34] Ali Alsafar, Ethos discursif et construction des rapports intersubjectifs dans les professions de foi des élections présidentielles françaises de 2007 et de 2012, 2014, Thèse de doctorat, r L'Université Montpellier III – Paul Valéry, France, Page: 29.

[35] ثابت بن جابر، ديوان تأبط شرا وأخباره، ص: 166.

[36] محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، دار الفكر العربي، 1996، القاهرة، مصر، ص: 684.

[37] ثابت بن جابر، ديوان تأبط شرا وأخباره، ص: 222 وما بعدها.

[38] Ali Alsafar, Ethos discursif et construction des rapports, Page: 31.

[39] الشعراء الهذليون، ديوان الهذليين، ترتيب: محمد الشنقيطي، 1965، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ج: 02، ص: 74.

[40] المصدر نفسه، ص: 169.

[41] Ali Alsafar, Ethos discursif et construction des rapports, Page: 32.

[42] Ibidem

[43] Ibidem

[44] Ibidem

[45] عروة بن الورد، الديوان، ص: 90.

[46] نظر: جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 18، ص: 169.

[47] السليك بن السلكة، ديوان الشنفرى ويليه ديوان السليك بن السلكة وعمرو بن براق، 1996، دار صادر، بيروت، لبنان، ص: 79.

[48] Ali Alsafar, Ethos discursif et construction des rapports, Page: 29-30.

[49] Ibidem

[50] Ibidem

[51] عروة بن الورد، الديوان، ص: 68-69.

[52] ثابت بن أوس، ديوان الشنفرى ويليه ديوان السليك بن السلكة وعمرو بن براق، ص: 55 -58.

[53] المصدر نفسه، ص: 33.

[54] المصدر السابق، ص: 39.

[55] Ali Alsafar, Ethos discursif et construction des rapports, Page:34.

[56] الهذليون، ديوان الهذليين، ص: 127 وما بعدها.

[57] Ali Alsafar, Ethos discursif et construction des rapports, Page :34.

[58] Ibidem.

[59] ثابت بن أوس، ديوان الشنفرى ويليه ديوان السليك بن السلكة وعمرو بن براق، ص:58.

قائمة المراجع:

1. Ali Alsafar, Ethos discursif et construction des rapports intersubjectifs dans les professions de foi des élections présidentielles françaises de 2007 et de 2012, 2014, Thèse de doctorat, r L'Université Montpellier III – Paul Valéry, France.
2. ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، 1982، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن.
3. ابن قتيبة، عيون الأخبار،1986، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
4. ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، د.ت، دار المعارف، القاهرة، مصر.
5. أبو الحسن حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، 1986، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
6. أرسطوطاليس، الخطابة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، 1979، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت.
7. أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، تر: رضوان العصبة، 2017، دار أفريقيا الشّرق، الدار البيضاء، المغرب.
8. ثابت بن جابر، ديوان تأبّط شرّا وأخباره، 1984، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
9. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1992، ج:09، منشورات جامعة بغداد، العراق.
10. الخطيب التبريزيّ، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، 2000، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.
11. دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، 2008، منشورات الاختلاف، الجزائر.
12. دومنيك مانغينو، مشكلات الحجاج بواسطة الإيتوس من البلاغة إلى تحليل الخطاب، مقال ضمن: التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف: أحمد قادم وسعيد العوادي، 2016، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن.
13. رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، 2011، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
14. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، 2011، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.
15. السليك بن السلكة، ديوان الشنفرى ويليه ديوان السليك بن السلكة وعمرو بن براق، 1996، دار صادر، بيروت، لبنان.
16. شايم بيرلمان، نحو نظرية فلسفية في الحجاج ضمن كتاب: فلسفة الحجاج البلاغي-نصوص مترجمة لشايم بيرلمان، ترجمة: أنوار طاهر، 2019، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن.

17. الشعراء الهذليون، ديوان الهذليين، ترتيب: محمد الشنقيطي، 1965، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
18. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د.ت، دار المعارف، القاهرة، مصر.
19. طه عبد الرحمن، في أصول احوار وتجديد علم الكلام، 2000، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
20. عروة بن الورد، ديوان عروة بن الورد أمير الصّعاليك، 1998، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.
21. مالك بن أنس، الموطّأ، الحديث رقم: 519/2155، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، 2004، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات.
22. محمد الولي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون أرسطو شاييم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، المجلد: 40، العدد:02، 2011.
23. محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، دار الفكر العربي، 1996، القاهرة، مصر، ص: 684.
24. محمّد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 1994، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، الجيزة، مصر.
25. محمد مشبال، في بلاغة الحجاج-نحو مفاربة بلاغية حجاجيّة لتحليل الخطاب،2017، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن.
26. مصطفى رجوان، الكائن البلاغي، 2021، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن.
27. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، 1978، دار المعارف، القاهرة، مصر.